

أبواب الشا من

إنسانية شوق الفنان في مسرحياته وغنائياته

إن السعى إلى التدليل على ما في شعر شوق من جبال وإنسانية ، ليس في حاجة إلى مجهود ، ولكن الأمر الشاق ، هو أنك لا تستطيع أن تهدي من نبض حواسك ، لوفرة وكثرة ما يستوقفك من هذا الجمال .

ولعل الشعر قد تميز عن باقي الفنون ، بأن الجمال فيه ، متنوع الصور ، عسير على التحليل الواضح ، عصى على النفوذ إلى حناياه وثناياه بصورة متمسرة في باقي الفنون .

ولم يترك شوق باباً من أبواب النظم إلا طرقه وأجاد فيه بنفس الجودة التي يلقاها قارئه فيما سبق له أن قرأه من نظمه في أبواب الشعر المعروفة . من وصف إلى فخر إلى حكمة إلى فلسفة إلى تهنية إلى مدحة إلى رثاء . لم يكتف شوق بهذا بل إنه كتب للأطفال شعراً مبسطاً . فيه الحكمة تتجاوز الهزل والبساطة والإنسانية .

نورد من ذلك قصيدة الثعلب وأم الذئب التي يقول فيها :

كان ذئب يتغذى فجرت في الزور عظمه

ألزمته الصوم حتى فحعت في الروح جسمه
فأنى الشعب يبكى ويعزى فيه أمه
قال يا أم صديقي بي مما بك غمه
فاصبري صبراً جميلاً إن صبر الأم رحمه
فأجابت : يا ابن أختي كل ما قد قلت حكمه
ما بي الغالى ولكن قولهم مات بعظمه
ليته مثل أخيه مات محسوداً بتخمته

• • •

ولا نزعم أن شوقى أضاف إلى قيثاره الشعر المشجية . وتراً جديداً في الشعراء
العربى ، هو المسرح الشعري الغنائى ، ولكنه اختار خامه هذا الوتر ، وأجاد
استخدامه إجادة تملك على النفس أمرها ، وتحرك أشجان القلب الخالى
والشجى على حد سواء . من فرط نراء هذا الإيقاع المبدع الرنان . والجرس
البديع الأغن . والموسيقى التى تناسب فى اللفظ قبل اللحن .

لقد سبق شوقى إلى تقديم المسرحية الغنائية الشعرية ، بعض شعراء
منحصرين ، كان شعر مسرحياتهم لا هم له ولا غاية منه إلا أن يكون قاعدة
يقم عليها الملحن ما يشاء من لحن ويكسوها الثوب الذى يترجم عن المعنى
بصورة بدائية التصوير ، ساذجة المعانى .

استمع إلى بيتين من المسرحية الشعرية المنظومة عن روميو وجوليت :

أجوليت ما هذا السكوت ولم أكن لأعهد فيك الصمت عنى فى قرى

سلام على حسن يد الموت لم تكن لتمحوه إذ تمحو هواه من القلب
وكان الشيخ سلامة حجازي هو الذي يقوم بالتمثيل في هذه المسرحية التي
كان يفتيها ، واسمها مصارع العشاق ، وقد كان الشيخ سلامة آنذاك هو نجم
المسرح الغنائية التي غنى فيها روايات : الناصر صلاح الدين ، والأفريقية ،
وروميو وجوليت ، وكانت ألع سنواته على المسرح تلك الفترة التي تقع بين عام
١٩١٢ حتى عام ١٩١٨ ، ثم بدأ المرض بعدها يزحف إليه حتى أقعده ، تماماً
عن التمثيل والغناء .

وكانت هناك في تلك الآونة مسارح أخرى كانت مادة أداؤها مشابهة . وهي
مسرح منيرة المهديّة ، ومسرح إخوان عكاشة . وكانت بعض مسرحيات
وأوبريتات هذه الفرق تؤدي باللغة العامية التي كان يكتبها بيرم التونسي وبديع
خيرى وأمين صدقي ويونس القاضي ، إلى جانب مسارح استعراضية للغناء
الفرانكو آراب مثل مسرح الريحاني وعلى الكسار والكورسال وكازينو
دي باري .

وعندما دخل محمد تيمور حلبة المسرح ومعه بيرم التونسي وعباس علام
انتعشت النهضة المسرحية ووجدت من الملحنين أمثال سيد درويش وداود
حسني وزكريا أحمد وكامل الخلعي ، معاوناً على أداء رسالة المسرح بأقصى
إمكانياتهم ، فقد قدم سيد درويش روايات العشرة الطيبة والباروكة
وشهرزاد ، وقدم زكريا أحمد وكامل الخلعي وداود حسني روايات عزيزة
ويونس ويوم القيامة وعلى بابا . ثم جاءت ملك الفنانة التي كانت خير أوبرانها
(مایسة) في آخر المطاف .

كان لا بد من هذه المقدمة عن المسرح الغنائي الشعري في مصر ، حتى نربط بينه وبين ما قام به أحمد شوقي من جهد وما ساهم به من عمل مجيد وضعه في مصاف كتاب المسرحيات الشعرية الدرامية منها والغنائية . فقد قدم للمسرح روايات على بك الكبير ، وقبيل ، والست هدى وغيرها ، ثم اتجه إلى المسرح الغنائي .

ويشاء القدر البسام ، أن يضع الأستاذ عبد الوهاب ، أمير الشعراء أحمد شوقي ، الذي استمع إلى عبد الوهاب في مناسبة عابرة ، فأطربه صوته وأعجب بأدائه وذوقه وخبرته التي تمّ عما بذل في سبيلها من كد ومعاناة ، والتي لم يكشف عنها إلا بعد اطمئنانه إلى خاماتها ونسيجها المتناسك .

وكان شوقي يقدم لعبد الوهاب الأغاني باللغة الدارجة حيناً ، وباللغة الفصحى أحياناً في شعريته به على الزمان ، ثم راح يقدمه إلى الخاصة من أهل ذلك الزمان ، وكانت تجربة لعبد الوهاب ، كانت ترمي إلى معرفة أثره المعروض على قوم كانوا ينصرفون عن كل ما هو شعبي أو شرقي أو وطني ، لكنه استطاع بغنائه ولون تلحينه البارع الطريف ، أن يزغزع ما كانوا يتمسكون به وراحوا يستمعون إليه في شغف واستحسان .

وقد نظم شوقي لعبد الوهاب ثروة في عالم الغناء والشعر ، فذكر منها على سبيل المثال : بلبل حيران ، في الليل لما خلى ، الليل بدموعه جاني ، التي يجب الجمال ، علموه كيف يجفرو فجفا ، يا ناعماً رقدت جفونه ، قولوا له روجي فداه ، ثم يا جارة الوادي التي نذكر فيها بلى قصتها .

كان أحمد شوقي ، يؤثر مصاييف لبنان على مصاييف أوروبا لاستقرار الجو فيها

ولجمال مناظرها ولوجوده في بيئة شرقية عربية ، يطيب له مناخها .

وهو القائل في لبنان :

لبنان والخلد اختراع الله لم يرسم بأزين منها ملكوته
هو ذروة في الحسن غير مردمة وذرا البراعة والحجا بيروته

وكان مصيف زحلة ، دون سائر مصايف الجبل ، مستأثراً بحب وإعجاب

وحنين أمير الشعراء .

وقد رأيت بلدية زحلة عام ١٩٢٧ أن تهديه قطعة أرض يقيم عليها داراً
لسكناه ، تطل على نهر (البردوني) ، الذي يشق زحلة مختالاً بين رياضها
ومجانها ، إلى أن يصبح عند قدميها جدولاً ، عذب الخزير ، شجى النغم ،
تنتشر على جوانبه المرححة اللعوب ، منتديات ومسارح ومطاعم ، لا تقع العين
فيها إلا على ضاحك أو شارب أو طاعم أو راقص أو عازف أو شاد . وقد قامت
على مشارف وادي زحلة ، عن يمين وعن يسار ، هضبتا صنين والحرمون ،
يضمان زحلة في حب ورفق وحنان ، حرصاً عليها واعتزازاً بها مثلما يعتز أب بابنة
حسنة غالية .

وقد رأى أمير الشعراء ، إعجاباً منه على شكره على لفظة بلدية زحلة ، إلى أن
يخلد هذا الحادث بشعره الذي يرن في أذن الزمان ، وأن يقوم الموسيقار
عبد الوهاب بتلحينه ، ليكتب لهذه القصيدة الخلود ، مثلما كتب الخلود لأغنية
قبلها منذ أكثر من مائتي عام في بلدة (أفينيون) في فرنسا ، وهي التي كانت في
فترة من الفترات مركزاً للبايوية . واسم هذه الأغنية :

Sur Le I-ont a'ervinion

(فوق كوبرى أفينيون) . ما تزال هذه الأغنية يتغنى بها الشبان والصبايا حتى وقتنا الحالى .

وقد صح ما توقعه أمير الشعراء لأغنية (يا جارة الوادى) فما أن شدا بها عبد الوهاب ، وطبعت على أسطوانات فى عهدهما ثم على كاستات فيما بعد ذلك ، حتى أصبحت القصيدة على لسان كل عربى وخاصة أهالى زحلة وقد أسمى أمير الشعراء القصيدة (آية الزمان) . وكان مطلعها :

شيعت أحلامى بقلب باك ولحمت من طرق الملاح شياكى
ثم نجيء الأبيات التى لحنها عبد الوهاب :

يا جارة الوادى طربت وعادنى ما يشبه الأحلام من ذكراك
ويقول فى ختامها وهى أبيات لم تغن ولكنه يعبر فيها عن امتنانه لبلدية زحلة . كما يفصح فيها عن قدر زحلة فى قلبه :

إن تكرمى يا زحل شعرى إننى أنكرت كل قصيدة إلاك
أنت الحىال بديعه وغريبه الله صاغك والزمان رواك

• • •

واستكمالاً للحديث عن شعر شوق الشاعر الإنسان ، والتنقل فى بستان ظمه ، والتنعم بجمال ما به من ورود وأزهار ، تبعث الأرج والشذى الذى يعطر الأرجاء وينعش النفوس الغافلة الهيامنة ، أقول استكمالاً لكل ذلك ، أى أن

أطوف بطرف من عادات هذا الإنسان ، الفريد في تكوينه والمعجز في نظمه
وبيانه .

كان شوق لا يرى صيفاً أو شتاءً إلا مكثياً بدلتة كاملة بصديرتها . وكان
لا يستعمل (الكرافات) أبداً ، ويستبدله (بالبايون) الجاهز الربطة ، حتى
لا يحتاج إلى أن يقوم بالتأكد من وجوده في مكانه الصحيح وهذه مهمة كانت
تضايق مزاجه الرقيق .

وكان شوقى رحمه الله ، قليل الأصدقاء ، كثير المعارف ، وهو يتقى
أصدقاءه مثلما يتقى الصائغ الماهر بديع الجواهر التي يستكمل بها صنعته ، وما بين
يديه من تحفة غالية .

وقديماً قال شاعر :

وما الخيل إلا كالصديق قليلة وإن كثرت في عين من لم يحرب

وكان لا يرتاح إلا لصحبة محدودة العدد ، خفيفة الظل ، رفيعة الذوق .
يأنس لها ويستطيب وجوده بينها ، وإن كان هو معهم ، الحاضر الغائب . من
هؤلاء المقربين إليه : المرحومين محمد البابلي والدكتور محبوب ثابت والشيخ
طهارة الذى كان إماماً للسفارة المصرية فى واشنطن آنذاك ، وحسين شيرين
بك والأستاذ محمد الجزيرى ، وقليل غيرهم ممن لم تعهم الذاكرة ، ومن
الأحياء ، أطال الله بقاءهم الأستاذين أحمد رامى ومحمد عبد الوهاب .
وكان يرتاد الأماكن التى اعتاد ارتيادها ، دون ما نظر إلى من يرتادها ، فهو

عجب للمكان ، غير آبه بالسكان الذين كان يجلس معهم وهو عنهم في شأن شعره وأوبراته وغنائياته .

وكان لا ينام إلا في ضوء شمعته أو (مسرجة) . ولا يطبق نور الكهرباء . وكان كثيراً ما يركب الترام المفتوح الجوانب وفي آخر مقاعد العربة الأخيرة . أما في السينما فكان يجلس في الصف الأول من الصلاة بسبب ضعف إبصاره . وعندما كان يعود من سهرة ليلاً إلى (كرمة ابن هاني) في المطرية ثم في الجزيرة ، كان يجد خادمه الخاص ، (الشاشرجي) في انتظاره ليقدم له عشاء خفيفاً . ثم يركه ليقراً أو يستكمل نظم قصيدة أو مسرحية أو أوبريت ، أو أغنية .

ومما هو مألوف عن بيرم التونسي أن أمير الشعراء عندما دخل عالم الأغنية ، خاف بيرم التونسي هذا الفارس الذي لا يجارى ، وأنه سيسود على ناظمي هذا اللون ، فقال يخاطبه بقوله :

يا أمير الشعر - غيرك في الزجل يبقى أميرك
أما شوق الرقيق ، الإنسان ، فقد كان يقول عن نظم بيرم لأزجاله وأغانيه
باللغة الدارجة .

إني أخاف على اللغة العربية من عامية بيرم البليغة .
يتوقف المحاضر قليلاً ليقول وهو يستعد للانصراف :
أشكر لكم حسن إصغائكم ، تصفيق من الحضور وهم يهمون
بالانصراف .